السنن الحضاريّة في القرآن الكريم
-الثورة التحريرية الجزائرية -نموذجا-

أ. حونية وافق
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعد أن ثبتت للقرآن الكريم قوانين مضبوطة في الكون والطبيعة، اتجهت الدراسات إلى إبراز قوانينه في مجال الإنسانيات، فظهر ما يسمى بالسنن القرآنية في التاريخ والإنسان والنفس والعمران...

ومن بين هذه السنن تلك القوانين التي تحكم الظاهرة الحضاريّة، وترافقها ضعفا وقوّة، وجودا وعدما وزوالا، ويصطلح عليها: "السنن الحضارية في القرآن".

القوانين الثابتة، بدءا بفكرة التحرّر من الغازي إلى النّضال والصمود والتضحية، إلى الاتّحاد والتقوّي بالعتاد أما هذه المحاضرة فيتناول موضوعها الخطوط العريضة لهذا النوع من السنن القرآنية مع إسقاطها على ثورة الفاتح من نوفمبر 54، فتظهر هذه الأخيرة تجسيدا واقعيا لهذه والعقيدة، إلى تحقّق النّصر من عند الله ﷻ.

هذا على العموم ويمكن تخصيص السنن بإضافتها إلى الظاهرة المراد تناولها حيث تظهر عناوين: السنن الكونية، السنن الاجتماعية، السنن التاريخية وما إلى ذلك. ومن بين هذه السنن تظهر السنن الحضارية والتي يمكن تعريفها كما يلي: "هي تلك القوانين المطردة والثابتة التي تتحكم في ميكانيكية أو آلية الظاهرة الحضارية قوة وضعفا وجودا وعدما".

وتجدر هنا الإشارة إلى المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظ "حضارة".

معنى "حضارة" لغة واصطلاحا

لغة: جاء في اللسان: "حضر، الحضور نقيض المغيب والغيبة" حضر يحضر حضورا وحضارة ... والحضر خلاف البدو ... الحاضر: المقيم في المدن والقرى ... والبادي المقيم بالبادية ... والحضارة: الإقامة في الحضر"[1].

ولما اقتضى الحضور نوعا من الاستقرار والثبات والأمن جاءت النتيجة ظاهرة في التطور والإبداع والابتكار مما أعطى المعنى الاصطلاحي.

اصطلاحا: الحضارة: "... والحضارة هي أحوال عادية زائدة عن الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت تفاوت الرفاهية، وتفاوت الأمم في القلّة والكثرة.."[1].

---

[1] ـــ ابن منظور، لسان العرب مج 1ص658 إعداد وتصنيف يوسف الخياط نديم مرعشلي دار لسان العرب بيروت لبنان- د.ت.

من هذه التعاريف يمكن التوصّل إلى فكرة السنن الحضارية في القرآن الكريم! إذ: هي تلك القوانين الثابتة التي وضعها الله تعالى في خلقه وصرّح بها القرآن الكريم والتي تحكم عجلة التطور والانحدار الحضاريين.

وهذه السنن كثيرة لا يمكن حصرها في هذا البحث الضيق، إلا أنه ما لا يدرك كله لا يترك جلّه، حيث يمكن التركيز هنا على السنن ذات الصلة المباشرة بأمور الثورة كي تعطى ثورة الفاتح من نوفمبر54 كنموذج عملي لها "لهذه السنن".

1- سنة التدافع

التدافع من دفع، ويأتي بمعنى إزالة الشيء وتنحيته بالقوة وإزاحته عن موضعه أو تركه إبقاء عليه مع القدرة..[2] أما التدافع فهو التفاعل بين طرفين أما معناه في القرآن الكريم على اختلاف المواطن التي ورد فيها اللفظ واشتقاقاته فهو "عملية تفاعل إنساني بثّها الله تعالى بين البشر في مختلف مجالات احتكاكهم دفعا دفاعا ومدافعة للغير في نيل أمر أو حمايته

---

[1] ـ المعلم بطرس البستاني كتاب هزة المعارف encyclopédie arabe مج 7ص97 دار المعرفة بيروت لبنان – د.ت.

[2] ـ انظر ابن فارس مجمل اللغة 330/2 مؤسسة الرحالة بيروت لبنان ط2، 1986 كذا معجم مقاييس اللغة 288/2 دار الجيل بيروت لبنان ط1 1991. وهي من معاني الدفع وليس معناه الوحيد.

منه أو منعه عنه، بإزالة المدافع أو إزاحته بالحجّة أو بالقوة أو بالإبقاء عليه مع القدرة"[1]. ومن أهم صور هذا التدافع في القرآن التدافع العسكري كما حدث في ثورة أول نوفمبر عندما برزت الجبهتان الجزائرية من ناحية والمستدمرة من ناحية أخرى تحقيقا للحرية والاستقلال وتحقيقا للمقصد القرآني لهذا التدافع والتقاتل وهو صلاح الأرض بأصحابها وإزاحة الفساد عنها والحاصل من طرف المستدمرين الغزاة. يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الْأَرْضُ﴾ [البقرة 251].

وهذا تعقيب على هزيمة داود لجالوت بعد المواجهة العسكرية؛ حيث يظهر الله الفئة المستضعفة على الفئة الطاغية.

أما قضية الفساد الحاصل بالاستدمار فهو واضح المعالم في الاحتلال الفرنسي للجزائر؛ فقد ضربت هذه الأخيرة في كل نقاط القوة التي كانت بحوزتها لمدة تزيد عن قرن؛ حيث سجلت الانحطاط الفكري والاجتماعي

---

[1]- عمر حيدوسي التدافع وسننه في القرآن الكريم ص 102 ماجستير في الكتاب والسنة 2001 2002 كلية العلوم الإجتماعية والعلوم الإسلامية جامعة العقيد الحاج لخضر باتنة تحت إشراف د/أحمد رحماني.

والثقافي والمادي والاقتصادي، فغدت من أفقر بلاد الأرض، بلاد تدمّرها الأمراض والمجاعات[1]. ويسجل الشيخ الورتلاني أبشع أعمال فرنسا في الجزائر فيقول:

"... وكان أوّل عمل قام به هو مصادرة الأوقاف الإسلامية، والمعاهد التابعة لها من مساجد ومدارس وزوايا، وتحويلها إلى كنائس وثكنات واصطبلات وميادين ومرافق عامة"[2].

وما دامت شخصية الجزائر مهددة بالطمس والإزالة على أرضها كان لابد من التوجّه إلى العمل المسلح وهو الطريق القويم والحل السديد لهذا الاستبداد والتدمير والتجاهل تماما كما كان الأمر لمن أخرجوا من بني إسرائيل من ديارهم وأهليهم لمّا سألوا نبيا لهم أن يؤمّر قائدا عليهم لاسترجاع الكرامة المسلوبة: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[البقرة 246].

---

[1] ـــ انظر مجاعات قسنطينة صالح العنتري (ت1870) تحقيق رابح بونار الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1974م.

[2] ـــ الجزائر الثائرة الفضيل الورتلاني ص196 دار الهدى عين مليلة الجزائر د.ت.

و لم تكن تلك الأسباب الوحيدة لقيام الثورة بل تضافرت لذلك الدوافع حتى باتت المواجهة المسلّحة الخيار الأوحد للجزائريين، بل واعتبر تأخر قيام هذه المواجهة وصمة عار في جبينهم لولا أن تداركتهم رحمة من الله. وقد ظهر النداء الذي أصدرته جبهة التحرير الوطني الجزائري مساء يوم 31 أكتوبر 1954 والذي وزّع يوم 1 نوفمبر على الشعب الجزائري قولهم:

'..وهكذا نرى اليوم كلا من تونس ومراكش قد أخذ يسلك طريق الكفاح المشترك بينما تخلّفنا نحن عن المسير وبقينا نعاني آلام تأخرنا، ونتحمل عواقب من فاتهم الركب.."[1] وجاءت الثورة لتحقيق سنّة الله في التدافع بين الناس، ليبقى الأصلح؛ وهذا بعد الأخذ بأسباب هذه السنّة. هذه الأسباب التي لم تتحقق جميعا في ثورات الجزائر منذ الاحتلال الفرنسي من قبل مما جعلها تتوّج بالفشل والاندحار.

وقد سجلت شهورا 'قبل غرّة الفاتح نوفمبر 54 خلافات بين ممثلي الشعب الجزائري كادت أن تذهب ريحهم.

---

[1] ــ ثورة الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين د/يحي بوعزيز ص301 دار البعث قسنطينة ط1 1980.

ويورد العلامة نايت بلقاسم تلك النقاط السوداء في تاريخ الجزائر قبيل الثورة ثم يعلّق على ذلك الضعف والهوان بقوله:

""كان كل من يعرفونها — وكانوا قلة - من كل عنصر ولون ولغة وملّة يشفقون عليها ممّا كانت فيه من مهانة وذلة ويتساءلون: كيف أضاعت كل ما كان لديها من مزيّة وخلّة، وتعبوا في البحث ولم يجدوا لذلك من سبب أو علّة، وناداها كل محبّ لها في الشارع والمسجد والنادي، وكلّت الحنجرة، وبحّ المنادي، ولا جواب إذ لا حياة لمن تنادي![1].

ويضيف في الصفحة الموالية: "... وكان معجزة في هذه الحال أن يقوم أول نوفمبر!"[2].

والناظر لا يجدها معجزة بقدر ما يجدها نتيجة حتمية لوضع اجتمعت كل أسبابه لتحقّق المواجهة وتحقّق سنّة الله في التدافع.

---

[1] ـــ ردود الفعل الأولية داخلا وخارجا على غرة نوفمبر أو بعض مآثر فاتح نوفمبر مولود قاسم ص 21 دار البعث قسنطينة ط1، 1983م.

[2] المرجع نفسه ص22.

ويكون التلاحم لتغلب الأهواء والشخوص والذوات ويهزم الجميع أمام وحدة الهدف وهو التحرير والاستقلال. ويسخّر الله فتية آمنوا بربهم فيوحّدوا الصفّ ويعلنوا الحرب ضد الغاصب: "..وانطلق حوالي ثلاثة آلاف مجاهد من معاقلهم بجبال الأوراس وجرجرة وفاجأوا الجيش الاستعماري الذي كان يغطّ في نومه بالثكنات والمعسكرات ... وبلغت جملة الحوادث التي حصلت تلك الليلة ثلاثين عملية حربيّة وفدائية"[1] يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾[الحج: 40].

وإلى سنّة أخرى من سنن التداول الحضاري.

2 ـ سنة الظلم:

الظلم وضع الشيء في غير محله وفيه مجاوزة الحق بزيادة أو نقصان وهو في الجانب السياسي ظاهر في الاستدمار أو في الاستبداد وهو غير مرضي من المجموع وجب تغييره لتحقيق العدل في مستوى معين وبشروط محددة.

---

[1] ـ ثورة الجزائر في القرنين 19 ،20، ص298.

ولمّا كان الظلم مركوزا في فطرة البشر فهو من سننه تعالى في الإنسان كان الجزاء عليه أيضا من سننه تعالى.

ومن صور الاستدمار الفرنسي للشعب الجزائري مظاهر لا تتخلّف في مستدمر أو مستبدّ ومنها:

1- الحرمان و التفقير[1]:

حيث أثبت التاريخ أن الشعب الجزائري يكون قد عرف أسوء أنواع الاحتلال في القرون الأخيرة، حيث ضعف المنتوج، وكاد ينعدم كما انتشرت الأمراض الفتاّكة، وضربت الضرائب المختلفة على أفراد الشعب لتجويعه وتركيعه وصرفه عن كل تفكير في التحرّر والانتفاض؛ حيث تظهر حكمة الملكة بلقيس كقانون عام يحكم كل دخيل على بلد:﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[النمل 34].

---

[1] ـ انظر الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830 –1960 ترجمة جوزف عبد الله دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ط1، 1983م.

واستمر الحال في التّضييق على الشعب الجزائري خاصة أثناء الثورة بشراء الذمم ومحاولة تقديم حلول استعجالية لتكميم الأفواه وضرب الثورة إلا أن سنّة الله في التحرير كانت أقوى لرد سنّة الظلم.

2- سياسة ضرب الأنفس والأعراض:

ويراد بها سياسة التقتيل الجماعي والفردي والعشوائي في كثير من الأحيان التي اتّبعتها الحكومة الفرنسية أثناء الثورة لتحطيمها. وتظهر عدم جدوى هذه السياسة من خلال ما كان من فرعون على زمانه وهو يقتل الرجال من بني إسرائيل ويستحيي النساء بغرض القضاء على المعارضة أو الثورة.

فكانت سمة فرعون وآله أنهم: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة49]. فأمّا استحياء النساء: فهو كشف عن المخبئ وهو التحقق من عدم حملهن "فالحياء الفرج لأنه يستحي من كشفه"[1] وأما تذبيح الأبناء فكان بقتلهم في المهد وبعده خشية مجيء من يقضي على حكمه. وما الغاية من كل ذلك إلا التقليل من بني إسرائيل وإذلالهم فلا تقوم لهم قائمة

---

[1] ـــ تفسير الآلوسي مج1 ج1 ص254.

ولا يمكنهم المعارضة ورفع الظلم عن المصريين. فهل تحقّق له ذلك؟ يقول الصاوي: "... وبنو إسرائيل كانوا ستمائة ألف وعشرين ألفا '620.000'[1]. وعند دخول يعقوب مصر كانوا سبعين نفسا ذكورا وإناثا، وبين موسى ويعقوب أربعمائة سنة، فكمل ذلك العدد مع كثرة قتل الأطفال وموت الشيوخ فسبحان الخلاق العظيم"[2]، وهو نفس ما قامت به الحكومة الفرنسية خاصة أثناء الثورة[3]، حيث اعتبرت كل امرأة "فاطمة" فأراد استحياءها والنيل من كرامتها؛ حيث يؤثر أن الواحدة منهن كانت تسوّد وجهها بالرماد كي تنجو من تجاوزات العسكر عند تمشيط الأحياء والبيوت، أما بالنسبة للتقتيل فكان أظهر في سياستها الظالمة ويكفي الدليل لذلك سقوط أزيد من مليون شهيد أثناء الثورة التحريرية وعشرات الآلاف أثناء الصدامات الدامية كما حدث في مجزرة 8ماي45 في الشرق الجزائري، فكانت فرنسا بذلك مجرمة حرب.

فهل استطاعت هذه السنّة سنّة الله في الظلم أن تسود وتهيمن أم أنها تلاشت لوجود سنة أخرى أقوى وأحقّ؟.

---

[1] ـــ يوم الغرق.

[2] ـــ حاشية الصاوي على تفسير الجلالين مج1 ص28 وبعد.

[3] ـــ انظر الثورة الجزائرية وصداها في العالم (الملتقى الدولي) ص90 محاضرة د/يحيى بوعزيز.

إنها سنة الحق المشروع التي تعلو كل ظلم وباطل.

3- سنّة الله في نصر عباده

هذه السنة تعتبر الجزاء السنني للظلم شرط توفّر الأسباب: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[النحل: 33].

لقد أخذ الشعب الجزائري ممثّلا في قيادته الشرعية جبهة التحرير الوطني بالأسباب الموصلة إلى النصر؛ حيث إنّه قدّم تضحيات جساما و لم يتأخر فيها إلا خائن، مما جعل هذا الشعب أهلا لنصر الله له وتمكينه في الأرض. وكانت النتيجة الأوّلية لهذه الثورة:

"لقد حطّمت الثورة الجزائرية سبع حكومات فرنسية متوالية... وقوّضت أركان الجمهورية الفرنسية الرابعة وزرعت الفشل والتفسّخ والاضطراب في الجيش الفرنسي وألحقت به هزائم تاريخية رغم الدّعم الكبير الذي كان يتلقاه من الحلف الأطلسي العسكري الغربي... طاعت هذه الثورة أن تحقّق عزل فرنسا دوليا من الناحية السياسية

طوال السنوات السبع: وأن تصيب الاقتصاد الفرنسي في الصميم.."[1]، وكانت الغلبة للفئة المظلومة القليلة،﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة 294].

وبهذه التضحيات والصبر والمصابرة استطاع الشعب الجزائري أن يظفر بنصر الله وبتمكينه في الأرض حيث خرج المستدمر راغما وتربّع الجزائري على العرش لينعم بالحرية و الاستقلال.

ومن هنا فالثورة الجزائرية لم تكن بدعا من الثورات في العالم، وقد جاءت متطابقة مع سنن الله في التدافع والتداول والدّورات الحضارية. وهو ما يتطلّب دراسة معمّقة وبحثا أكاديميا جادّا وموسّعا من جانب القرآن الكريم وإسقاط سننه الحضاريّة على ثورة الفاتح من نوفمبر المجيدة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

[1] ـــ الثورة الجزائرية وصداها في العالم (الملتقى الدولي) ص92 محاضرة د/يحي بوعزيز.